الابتلاء وأثره
في حياة الدعاة إلى الله تعالى

د. عمر عبد الله عبد الرحيم الكندري(*)

المقدمة :

إن الحديث عن الابتلاء والمحن والفتن في الدعوات أمر ضروري لكل عمل إسلامي منظم، حتى يبصر أفراده بطبيعة الطريق، ويهيئهم لتوطين نفوسهم على ما يعترضهم من عقبات وصعوبات وآلام، ويخفف على المبتلين ما يقاسونه من تعب ونصَب وعنت.

والصبر على البلاء يعتمد على حقيقتين خطيرتين:

أما الأولى: فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا؛ فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار، بل جعلها دار تمحيص وامتحان.

والفترة التي يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات، يخرج من امتحان ليدخل في امتحان آخر، قد يغاير الأول مغايرة تامة.

أي أن الإنسان قد يمتحن بالشيء وضده، مثلما يصهر الحديد في النار ثم يرمى في الماء... وهكذا.

وكان سليمان عليه السلام عالمًا بطبيعة الدنيا عندما رزق التمكين الهائل فيها فقال:

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (1).

(*) الأستاذ المساعد بكلية التربية الأساسية - بالهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب بدولة الكويت .

(1) سورة النمل آية (40).

والابتلاء بالأحزان مبهم الأسباب، ويحسن أن نفهم أن أوضاع الناس في الحياة كجيش عبئ للقتال، وقد تكلف بعض فرقه بالقتال حتى الموت لإنقاذ فرقة أخرى.

كذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفا من الابتلاء ربما انتهت بمصارعهم، وليس أمام الفرد إلا أن يستقبل البلاء الوافد بالصبر والتسليم.

ومادامت الحياة امتحاناً فلنكرس جهودنا للنجاح فيه.

وامتحان الحياة ليس كلامًا يكتب أو أقوالاً توجه، إنها الآلام التي قد تقتحم النفس وتفتح إليها طريقًا من الرعب والحرج.

وأما الحقيقة الأخرى: فتتعلق بطبيعة الإيمان؛ فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله عز وجل، و إذا كانت صلات الصداقة بين الناس لا يُعتد بها ولا ينوه بشأنها إلا إذا أكدها مر الأيام، وتقلب الليالي، واختلاف الحوادث؛ فكذلك الإيمان لابد أن تخضع صلته للابتلاء الذي يمحصها؛ فإما كشف عن طيبها، وإما كشف عن زيفها[1].

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2] .

والمسلم إنسان يؤمن بالله القوي القادر الذي بيده مقاليد السموات والأرض و إليه المصير، فلن يقع في ملكه إلا ما يقدره ويريده، ويؤمن بأنه لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وأن أهل الأرض جميعًا لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وأنهم لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

فمصيره محدود ومعلوم عند الله وحده؛ لأنه سبحانه وتعالى بعلمه المحيط يعلم كل شيء، ولكن الإنسان لا يعلم شيئًا عن مستقبله ولا عما كتب الله له أو عليه.

والله سبحانه وتعالى يعلم المؤمنين هذه الحقيقة في كثير من آياته الكريمة؛ قال الله تعالى:

---

(١) خلق المسلم ، محمد الغزالي صـــ١٢٧ ، ١٢٨.

(٢) سورة العنكبوت آية (٢ ، ٣).

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١).

فلماذا الأسى الذي يأتي بالمرض، ولماذا الفرح الطاغي الذي يجرنا إلى ما لا يحبه الله من التفاخر والخيلاء، وكل قدر قدره الله في علمه، وما تم ليس سوى إخراج لما قدره الله ؟!

تعريف الفتنة والابتلاء

المطلب الأول: الفتنة

جاء في لسان العرب: «جماع معنى الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد، أو إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته»(٢).

وفي النهاية لابن الأثير: «الفتنة: الامتحان والاختبار، وقد كثر استعمالها فيما أخرجه الاختبار للمكروه، ثم كثر حتى استعمل لفظ الفتنة بمعنى الإثم والكفر والقتل والقتال والإحراق والإزالة والصرف عن الشيء»(٣).

وفي المعجم الوسيط «الفتنة: الاختبار بالنار، والابتلاء والاختبار، قال الله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٤)، والفتنة: الإعجاب بالشيء والاضطراب وبلبلة الأفكار، والعذاب والضلال. وفتنه: رماه في شدة ليختبره، وفتن فلانًا: عذبه ليحوله عن رأيه أو دينه»(٥).

وفي المفردات في غريب القرآن: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنة، فيستعملون هذه اللفظ؛ فيه نحو قوله تعالى: ﴿ أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾ (٦)، وتارة يستعملون الفتنة في الاختبار، نحو قوله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ (٧).

---

(١) سورة الحديد آية (٢٢ ، ٢٣).
(٢) لسان العرب لابن منظور جـ ١٧ صـ ١٩٣.
(٣) النهاية لابن الأثير جـ ٣ صـ ٤١٠، ٤١١.
(٤) سورة الأنبياء آية (٣٥).
(٥) المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ٦٨٠.
(٦) سورة التوبة آية (٤٩).
(٧) سورة طه آية (٤٠).

وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً، قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، وقال تعالى في الشدة ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي أوقعتموها في بلية وعذاب وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ فقد سماهم هاهنا فتنة اعتبارًا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم، وقوله تعالى: ﴿ الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (١) أي لا يختبرون فيميز خبيثهم من طيبهم(٢).

المطلب الثاني: البلاء

البلاء والابتلاء يلتقيان في معنى الاختبار والامتحان، جاء في لسان العرب:«بلوت الرجل وابتليته: اختبرته، وابتلاه الله: امتحنه. والاسم: البلوى والبلاء،: الاختبار، يكون في الخير والشر»(٣).

وفي النهاية لابن الأثير: «الابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان. يقال: بلوته و أبليته، والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معًا من غير فرق بين فعلهما، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (٤).

وفي المفردات في غريب القرآن: «بلوته: اختبرته، وأبليت فلانًا إذا اختبرته، وسمى التكليف بلاء من أوجه: أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاءً. والثاني: أنها اختبارات، ولهذا قال عز وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ (٥). والثالث: أن اختبار الله تعالى للعبد تارة بالمسار ليشكر، وتارة بالمضار ليصبر، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاءً»(٦).

وفرق أبو هلال العسكري بين التكليف والابتلاء، كما فرق بين الابتلاء والاختبار، وعرف التكليف بأنه: إلزام ما يشق إرادة الإنسانية عليه، وأصله في العربية اللزوم.

---

(١) سورة العنكبوت آية (١، ٢).
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ ٣٧١ -٣٧٢.
(٣) لسان العرب جـ ١٨ صـ ٩٠.
(٤) النهاية لابن الأثير جـ ١ صـ ١٥٥.
(٥) سورة محمد آية (٣١).
(٦) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني صـ ٦١.

أما الابتلاء فهو استخراج ما عند المبتلى، وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة، ويقول: وليس هو من التكليف في شيء.

فإن سمي التكليف ابتلاءً في بعض المواضع فقد يجري على الشيء اسم ما يقاربه في المعنى، واستعمال الابتلاء في صفات الله تعالى مجاز معناه إنه يعامل العبد معاملة المبتلى المستخرج لما عنده، ويقال للنعمة: بلاء؛ لأنه يستخرج بها الشكر، والبلى يستخرج قوة الشيء بإذهابه إلى حال البال، فهذا كله أصل واحد.

ثم قال: الابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق، والاختبار يكون بذلك وبفعل المحبوب، ألا ترى أنه يقال: اختبره بالإنعام عليه، ولا يقال ابتلاه بذلك لا هو مبتلى بالنعمة، كما قد يقال: اختبره بالإنعام عليه ولا تقول ابتلاه بذلك ولا هو مبتلى بالنعمة كما قد يقال: إنه مختبر بها.

ويجوز أن يقال: إن الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية والاختبار يقتضي وقوع الخبر بحاله في ذلك، والخبر: العلم الذي يقع بكنه الشيء وحقيقته، فالفرق بينهما بين[1] – أي بين الابتلاء والاختبار.

والخلاصة في معنى الفتنة والابتلاء: هو الاختبار والامتحان للإنسان في الشدة والرخاء وكذلك لفظ البلاء، مع زيادة في المعنى الذي نريده بلفظ البلاء؛ وهو الحادث الذي فيه شدة ومشقة، وينزل بالمرء لغرض اختباره وامتحانه به.

ابتلاء الدعاة إلى الله والمؤمنيـــن سنة ربانية

من سنن الله تعالى في خلقه ا لابتلاء؛ ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته فكم يخفق له عمل، أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، أو... إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة، حتى قال الشاعر يصف الدنيا.

جبلت على كـــدر وأنـــت تريـــدها   صـــفوًا مـــن الأقـــدار والأكـــدار

---

(١) الفروق في اللغة ص ٢١٠- ٢١١ (بتصرف).

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار[1]

وقد مضت سنة الله في الابتلاء أنه يمتحن عباده بالشر والخير؛ أي يختبرهم بما يصيبهم مما يثقل عليهم كالمرض والفقر والمصائب المختلفة.

كما يختبرهم بما ينعم عليهم من النعم المختلفة التي تجعل حياتهم في رفاهية ورخاء وسعة العيش كالصحة والغنى ونحو ذلك.

ليتبين بهذا الامتحان من يصبر في حال الشدة، ومن يشكر في حال الرخاء والنعمة.

قال الله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [2] أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا والمصائب والشدائد كالسقم والفقر وغير ذلك مما يجب فيه الصبر، كما نختبركم بما يجب فيه الشكر من النعم كالصحة والغنى والرخاء، ونحو ذلك فيقوم المنعم عليه بأداء ما افترضه الله عليه فيما أنعم به عليه.

وكلمة (فتنة) في قوله تعالى: «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» أي ابتلاء؛ فهي مصدر مؤكد لقوله تعالى: «ونبلوكم» من غير لفظة: «وإلينا ترجعون» أي فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر[3].

فاختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا فالمنحة والمحنة جميعًا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر بن الخطاب ﵁: بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر[4].

فهذه سنة الله تعالى في الحياة الدنيا، وهو سبحانه إنما خلق السموات والأرض وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم ليعلم من يريده.

---

(١) الإيمان والحياة للشيخ محمد الغزالي صـ ١٧٨.

(٢) سورة الأنبياء آية (٣٥).

(٣) تفسير الزمخشري جـ ٣ صـ ١١٦، تفسير الآلوسي جـ ١٧ صـ ٤٧.

(٤) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني صـ ٦١.

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٤).

قال ابن كثير معلقًا على الآية الأولى والثانية: « أن الله خلق الموت والحياة، وخلق السموات والأرض وما فيهما، لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ولم يخلق ذلك عبثًا؛ كقوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (٥).

وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (٦).

وقوله «ليبلوكم» أي ليختبركم أيكم أحسن عملاً (٧).

---

(١) سورة الملك آية (٢).

(٢) سورة هود آية (٧).

(٣) سورة الكهف آية (٧).

(٤) سورة الإنسان آية (٢).

(٥) سورة المؤمنون آية (١١٥-١١٦).

(٦) سورة ص آية (٢٧).

(٧) تفسير ابن كثير جـ ٦ صـ ٥٦٧٧.

وأما الآية الثالثة وهي: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١)

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية مزينة بزينة زائلة، وأنه جعلها دار اختبار لا دار قرار.

قال قتادة: عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، و إن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»(٢).

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وذهابها وخرابها، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي: وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار فنجعل كل شيء عليها هالكًا(٣).

وإذا كان هذا سنة الله تعالى في الحياة عامة وفي الناس كافة؛ فإن أصحاب الرسالات – خاصة – وأتباعهم المؤمنين الداعين بدعوتهم هم أشد تعرضًا للأذى والمحن والابتلاء في أموالهم، وأنفسهم، وأعراضهم، وأبدانهم وأهليهم.

وأيضًا جرت سنة الله تعالى أن يكون لهم أعداء يمكرون بهم، ويكيدون لهم، ويتربصون بهم الدوائر.

إنهم يدعون إلى الله فيحاربهم دعاة الطاغوت، وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل، ويهدون إلى الخير فيعاديهم أنصار الشر ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر.

لأن طريق الدعوة إلى الله تعالى محفوف بالمكاره والفتن، وأشد الناس بلاءً في هذا الطريق الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

روى الترمذي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله تعالى أي الناس أشد بلاءً ؟ قال: « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على

---

(١) سورة الكهف آية (٧).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ صـ ٥٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ صـ ٧٢.

حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، و إن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[1].

ومن الآيات القرآنية التي تدل على أن ابتلاء الأنبياء والذين آمنوا معهم سنة ربانية لا تبديل لها؛ قال الله تعالى:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [2]

أولاً: الآيات الدالة على ابتلاء الأنبياء:

١- قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [3].

«إنها كلمات يقولها الله سبحانه لرسوله ﷺ ، كلمات للذكرى وللتسرية وللمواساة والتأسية، وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحًا ودورهم محددًا، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريقة.

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة، كما أنها كذلك وحدة لا تتجزأ، دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب، وتتلقى أصحابها بالأذى. وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى، وسنة تجرى بالنصر في النهاية ولكنها تجيء في موعدها[4].

٢- قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾. [5].

---

(١) سنن الترمذي جـ ٤ صـ ٢٨.
(٢) سورة الأحزاب آية (٦٢).
(٣) سورة الأنعام آية (٣٤).
(٤) ظلال القرآن جـ ٢ صـ ١٠٧٧.
(٥) سورة الأنعام آية (١١٢- ١١٣).

ومعنى جعلهم أعداء للأنبياء: أن سنة الله قد جرت بأن يكون الشرير (المتمرد العاتي عن الحق والمعروف) الذي لا ينقاد للحق كبرًا وعنادًا وجمودًا على ما تعود – عدوًا للداعي إليه من الأنبياء وورثتهم وناشري دعوتهم.

وهكذا الحال في كل ضدين يدعو أحدهما إلى خلاف ما عليه الآخر في الأمور الدينية أو الاجتماعية، وهذا ما يعبر عنه بسنة تنازع البقاء بين المتقابلات التي تدعو إلى التنافس والجهاد، وتكون العاقبة انتصار الحق، وبقاء الأمثل للأصلح[1] قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[2].

والآية السابقة وهي ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ ﴾ قرر لها الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن تقريرات نلخصها فيما يلي:

(أ) أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي وبالأذى لأتباع الأنبياء هم شياطين من الإنس ومن الجن، و أن بعضهم يخدع بعضًا ويضله كذلك، مع قيامهم جميعًا بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله.

(ب) أن هؤلاء الشياطين لا يقدرون على شيء من عداء الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية فيهم، إنما هم في قبضة الله عز وجل وهم يبتلي بهم أولياءه لأمر يريده؛ من تمحيص هؤلاء الأولياء، وتطهير قولبهم وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء، فإذا اجتازوا الامتحان بقوة، كف الله عنهم الابتلاء، وكف عنهم هؤلاء الأعداء، وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله.

(ج) أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا، ولقد كان الله عز وجل قادرًا – لو شاء – ألا يتمردوا، و ألا يتمحضوا للشر، وألا يعادوا الأنبياء، وألا يؤذوا المؤمنين، وألا يضلوا الناس عن سبيل الله.. فالله سبحانه قادرًا أن يقهرهم قهرًا على الهدى أو أن يهديهم لو توجهوا للهدى، أو أن و يعجزهم عن التصدي للأنبياء والحق والمؤمنين به، ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم هذا القدر

---

(١) تفسير المراغي جـ ٨ صـ ٦.

(٢) سورة الرعد آية (١٧).

من الاختيار وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء الله، بالقدر الذي تقضي به مشيئته ويجري به قدره، وقدر أن يبتلى أولياءه بأذى أعدائه، كما يبتلي أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدرة الذي أعطاهم إياه.

فهو إنما يبتلي أولياءه كذلك لينظروا: أيصبرون ؟ أيثبتون على ما معهم من الحق، بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ أيلخصون من حظ أنفسهم في أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله تعالى، على السراء وعلى الضراء سواء، وفي المنشط والمكره سواء ؟

(د) أن شياطين الإنس والجن لا يستطيلون بقوة ذاتية لهم، وما يملكون أن يتجاوزوا حدود ما أذن الله تعالى به على أيديهم من الكيد والأذى، ولذلك فالمؤمنون الذين يعلمون أن ربهم هو الذي يقدر، وهو الذي يأذن، جديرون أن يستهينوا بأعدائهم من الشياطين، مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدعي، وجديرون بأن يملأوا قلوبهم بالثقة والطمأنينة، ويعلقوا قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود، وأن يطلقوا وجدانهم من التعلق بما يرديه أو لا يريده الشياطين، وأن يمضوا في طريقهم يبنون الحق في واقع الخلق، بعد بنائه في قلوبهم هم وفي حياتهم، أما عداوة الشياطين وكيد الشياطين فليدعوهما للمشيئة المحيطة والقدر النافذ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون[1].

ثانياً : الآيات الدالة على ابتلاء المؤمنين:

١- قوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[2].

قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: «لنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم، وبسنة تصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعذر المطالب عليكم، فتنقص

(١) في ظلال القرآن جـ ٨ صـ ١١٨٨ - ١١٩١ (بتصرف).

(٢) سورة البقرة آية (١٥٥ - ١٥٧).

لذلك أموالكم، وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار فينقص لها عددكم، وموت ذراريكم وأولادكم، وجدوب تحدث فتنقص بها ثماركم، كل ذلك امتحان مني لكم، واختبار مني لكم، فيتبين صادقوكم في إيمانكم من كاذبيكم فيه ويعرف أهل البصائر في دينهم منكم من أهل النفاق فيه والشك والارتياب، كل ذلك خطاب منه لأتباع رسول الله ﷺ وأصحابه»[1].

«وفي الآية إيماء إلى أن الانتساب إلى الإيمان لا يقتضي سعة الرزق وبسط النفوذ وانتفاء المخاوف، بل كل ذلك يجري بحسب السنن التي سنها الله لخلقه، فتقع المصائب متى وجدت أسبابها، وكامل الإيمان يتأدب بمقاومة الشدائد، ويتهذب بوقوع الكوارث»[2].

والخطاب في الآية – و إن كان موجهًا لأتباع النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم – فإنه يشمل جميع المؤمنين في أي زمان وفي أي مكان؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فأي جماعة مسلمة تنهض بتكاليف الدعوة إلى الله تعالى، وتحاول تحقيق منهاج الله سبحانه في الأرض. لابد أن يبتليهم الله عز وجل بلاءً يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات، وهذه هي سنة الله في العقائد والدعوات.

٢- امتحان المؤمنين بأنواع الأذى

مثل قوله تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[3] .

ومعنى الآية: «أي لابد أن يبتلي المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ويبتلي المؤمن على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿ لَتُبْلَوُنَّ

---

(١) تفسير الطبري جـ ٣ صـ ٢٢٠.

(٢) تفسير المراغي جـ ١ صـ ٢٤.

(٣) سورة آل عمران آية (١٨٦).

فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا ﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسليًا لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وآمرًا لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله»[1].

«وكأنه يقول سبحانه: إن ما وقع من الابتلاء في الأنفس والأموال والطعن في تلك الواقعة ليس آخر الابتلاء، بل لابد أن تبتلوا بعد ذلك بكل هذه الضروب منه، وتجري فيكم سنته تعالى في خلقه فلا تظنوا أنكم جلستهم على عرش العزة، واعتصمتم بالمنعة وأمنتم حوادث الكون، فإنه لابد أن يعاملكم الله تعالى كما يعامل الأمم، معاملة المختبر المبتلى لا ليعلم ما لم يكن من أمركم فهو علام الغيوب، بل ليميز الخبيث من الطيب من بعد، كما ماز الكثيرين في واقعة أحد»[2].

٣- من سنة الله في الابتلاء: امتحان المؤمنين بالشدائد

قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾ [3].

قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في معركة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد.

وقال بعض المفسرين: نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين وآثروا رضا الله ورسوله، فأنزل الله تعالى هذه الآية تطييبًا، واستدعاهم الله تعالى إلى الصبر و وعدهم على ذلك بالنصر[4].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٤٣٥.

(٢) تفسير المنار جـ ٤ صـ ٢٧٤.

(٣) سورة البقرة آية (٢١٤).

(٤) تفسير القرطبي جـ ٣ صـ ٣٤.

(والبأساء): الشدة تصيب الإنسان في غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة.

(والضراء): ما يصيب الإنسان في نفسه كالجراح والقتل.

(وزلزلوا): أي أزعجوا إزعاجًا شديدًا بأنواع البلاء وخوفوا من الأعداء[1].

ومعنى الآية: «أم ظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تختبروا وتمتحنوا كما امتحن الذين من قبلكم من الأمم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا أي خوفوا من الأعداء تخويفًا شديدًا وامتحنوا امتحانًا عظيمًا، حتى إن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه أخذوا يستفتحون على أعدائهم ويدعون الله بقرب الفرج والمخرج من الضيق الذي هم فيه، وكان الجواب لدعاء المؤمنين أن قال لهم الله: ﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [2].

وفي تفسير القرطبي: «وأكثر المتأولين على أن الكلام إلى آخر الآية هو من قول الرسول ﷺ والمؤمنين؛ أي أن الجهد قد بلغ بهم مبلغًا عظيمًا حتى استبطؤوا النصر، فقال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

ويكون ذلك من قول الرسول صلى الله عليهم وسلم والمؤمنين على معنى طلب استعجال النصر لا على الشك والارتياب في حصول النصر.

وقالت طائفة من المفسرين: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا: متى نصر الله ؟ فيقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب.

وإنما قدم ذكر الرسول ﷺ في الآية لمكانته وعلو منزلته، ثم قدم قول المؤمنين؛ لأنه هو المتقدم في الوقوع من حيث الزمان؛ أي قالوا ذلك ثم أجابهم الرسول ﷺ بأن نصر الله قريب[3].

٤- من سنة الله في ابتلاء المؤمنين امتحانهم بالجهاد

قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[4].

---

(١) تفسير المنار جـ ٢ صـ ٢٩٩، تفسير الرازي جـ ٦ صـ ٢٠ - ٢١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٢٥١.
(٣) تفسير القرطبي جـ ٣ ص ٣٥ - ٣٦.
(٤) سورة آل عمران آية (١٤٢).

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تمتحنوا بالقتال والشدائد؛ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تمتحنوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء»[1].

ويقول الأستاذ سيد قطب:

«إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور: تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان: أسلمت وأنا على استعداد للموت فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان و أن ينتهي إلى الجنة والرضوان، إنما هي التجربة الواقعية، والامتحان العملي، وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء، ثم الصبر على تكاليف الجهاد وعلى معاناة البلاء».

ثم يقول: «وفي النص القرآني لفتة ذات مغزى كبير وهي: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون، إنما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضًا، التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان، فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر ويختبر لها الإيمان.

إنما هنالك المعاناة اليومية التي لا تنتهي: معاناة الاستقامة على أفق الإيمان، والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك، والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني: في النفس وفي الغير ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية.

والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر، والصبر على طول الطريق وبعد المشقة وكثرة العقبات، والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال، والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدًا منها، في الطريق المحفوف بالمكاره، طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وبكلمات اللسان.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٤٠٨ – ٤٠٩.

٥- من سنة الله ابتلاء الناس بالتفاوت فيما بينهم

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

أي مما يمتحن الله به عباده وجرت به سنته تفاوتهم واختلافهم في المواهب والأرزاق ليظهر مدى قيامهم بما يلزمهم شرعًا من فعل أو ترك نحو أنفسهم وغيرهم، بناء على الحالة التي هم عليها، وامتازوا بها عن غيرهم، واختصوا بها من دونهم؛ كالعلم والجاه والمال والمكانة الاجتماعية والسلطان وغير ذلك.

ومعنى الآية السابقة:

«أن الله تعالى هو الذي جعلكم - أيها المسلمون - خلفًا للأمم الماضية والقرون السابقة ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أي فاوت وخالف بينكم في الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك.

وقد جرت سنته تعالى في هذا التفاوت ورفع بعضكم فوق بعض في هذا التفاوت ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره، وليختبر ذا الجاه والسلطان في أي شيء استعمل جاهه وسلطانه.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن كفر نعمته وعصاه فيها، ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن قام بشكر نعمته وأطاعه فيها(٢).

و إذا كان الابتلاء مما قضت به سنة الله في الحياة، فإن ابتلاء الدعاة إلى الله مما جرت به السنة الإلهية أيضًا؛ فهم يبتلون بأذى الكفرة والمارقين بالقول والكيد، قال الله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام آية (١٦٥).

(٢) تفسير القرطبي جـ ٧ صـ ١٥٨ تفسير الزمخشري جـ ٢ صـ ٨٤.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١).

ومعنى ﴿ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ أي يحملونك على الخفة والطيش بعدم الصبر ن والدعاة إلى الله تعالى يكيد لهم أهل الباطل ويفترون عليهم الكذب ويؤذونهم بأنواع الأذى لأنهم قوم يجهلون وضالون.

وقد أوذي أصحاب النبي ﷺ في مكة أشد الأذى، وكان رسول ﷺ الله يأمرهم بالصبر.

فعلى الداعي المسلم أن يقابل الأذى الذي يلقاه بالصبر الجميل كما فعل رسول الله ﷺ وصاحبته الكرام ومن قبلهم رسل الله فإن هذا الصبر مما ينعقد عليه عزم المؤمنين وتتوجه إليه إرادتهم.

قال الله تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٢).

صور من الابتلاء عبر القرون

وأثرها في حياة الدعاة إلى الله تعالى

تحتاج أي قضية من القضايا أو مبدأ من المبادئ - للحصول على ثمرة مرجوة فيه - أن يصبر صاحبه عليه ويتحمل في سبيله المشاق، فلا يتصور غنم لا غرم معه.

والدعوة إلى الله تعالى - كأي قضية من القضايا- تحتاج من أصحابها إلى البذل والتضحية، والصبر على ملاقاة المكاره في سبيلها، وإلا صار الداعي كمن يحرث في ماء، أو ينفخ في هواء.

من أجل هذا كان اتصاف الداعية في سلوكه بالصبر على ملاقاة الصعاب، والاستعداد للتضحية أمرًا لا مناص منه لكل من أراد التوفيق والسداد في دعوته إلى الله.

---

(١) سورة الروم آية (٦٠).

(٢) سورة آل عمران آية (١٨٦).

إن الداعية سيواجه جيوشًا جرارة من أصحاب العقائد الباطلة تتفاني في سبيل إقرارها ودعوة الناس إليها، وتبذل في سبيل ذلك المليارات في كل يوم، فإذا طمع الداعية في التغلب على أولئك المفسدين من غير بذل من ماله ووقته وجهده فقد أعرب عن فشله، وذهبت جهوده سدى[١].

«فالذي يحمل هدى الله للدنيا وما فيها ما لم يكن له حظ من الصبر يفوق حظ المتربصين به المعاندين له – كان عمله في الناس شبيهًا بالمصل الضعيف أمام الجراثيم المدمرة، لا يلبس أمامها طويلاً حتى تأتي عليه»[٢]

ومن الضروري أيضًا ألا تُعجب جهود الدعاة أصحاب هذه العقائد الباطلة أو من يتأثر بهم، فتبدأ المضايقات والمناوشات للدعاة، مما يترتب عليه تعرضهم للأذى أحيانًا، وملاقاتهم للمكاره في سبيل إحقاق الحق.

ويستلزم هذا من الداعية أن يوطن نفسه على تحمل مثل هذه المكاره والتي أشار القرآن الكريم إلى أنها قرينة التمسك بالحق والدعوة إليه، فقال تعالى لسان لقمان الحكيم:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[٣].

يقول الأمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لابد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر»[٤].

وحتى يتضح المقال بالمثال أسوق إليك – أخي الداعية – هذه الأمثلة التي تدل على الابتلاء والتمحيص للدعاة إلى الله على مدى التاريخ الإنساني.

ونبدأ ذلك بالحديث عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فقد تعرضوا للقتل بأيدي الظلمة والعتاة، وسجل ذلك ربنا في كتابه؛ فقال الله تعالى في كتابه:

---

(١) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى د. طلعت عفيفي صـ ١٧٤-١٧٥.

(٢) في موكب الصبر وصحبة الصابرين د. يحيى إسماعيل صـ ٢٩.

(٣) سورة لقمان آية (١٧).

(٤) سورة آل عمران آية (٢١).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١).

وفي الأثر عن ابن مسعود ﷺ تأكيدًا على هذا المعنى يقول: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار»(٢).

كذلك تعرض الأنبياء للأذى المادي مما هو دون القتل، فألقي الخليل عليه في النار، ورمي نوح عليه السلام بالضلالة، وهود عليه السلام بالسفاهة، وألقي يوسف عليه السلام في السجن ظلمًا وعدوانًا وأدميت قدم النبي ﷺ من آثار الضرب حال عودته من الطائف، ولم يتمكن من دخول بلده حينئذ إلا في جوار المطعم بن عدي أحد المشركين.

وتل آيات القرآن الكريم أن تعرض الأنبياء للأذى قدر مشترك بينهم جميعًا فقال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (٣).

المطلب الأول: صور من ابتلاء الصحابة رضوان الله عليهم

من المعلوم أن أعداء الإسلام لم يكتفوا بإيذاء الرسول □، بل إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه؛ فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنه من يصلب لهم ويعصمه الله منهم.

يقول ابن إسحاق في السيرة: "إن قريشا تزامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم"(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٤٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٣٥٥.

(٣) سورة الفرقان آية (٣١).

(٤) سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٠٧.

وعن سعيد بن جبير قال: "قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إن كانوا ليضربوا أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضرب الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزي إلهك من دون الله، فيقول: نعم. حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم افتداء منهم مما يبلغون من جهده"[1].

فقد تجرع كل منهم ألوانا من العذاب حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئا، ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج من العذاب الذي لاقاه كل منهم، ولكننا ننقل هنا ما رواه الإمام البخاري عن خباب بن الأرت أنه قال:

أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: "لقد كان من قلبكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[2].

ومن الأمثلة على ذلك:

١- بلال بن رباح :

وكان بلال مولى أبي بكر رضي الله عنهما لبعض بني جمح، مولدا من مولديهم، وكان اسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له:

لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزي.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص٦٧.

(٢) رواه البخاري عن خباب بن الأرت.

فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد!! وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك وهو يقول: أحد أحد.

فيقول: أحد أحد والله يا بلال.

ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جمح فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا! حتى مر به أبو بكر الصديق يوما وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين.

حتى قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به، قال: قد قبلت فقال: هو لك.

فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه ذلك وأخذه فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم[(١)].

٢- عمار بن ياسر :

فكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام- إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: "صبرا آل ياسر موعدكم الجنة" فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام[(٢)].

٣- أنس بن النضر :

روى الإمام البخاري رحمه الله أن أنس بن النضر ﵁ قد غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال للنبي ﷺ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد، فهزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل، فما عرف، حتى عرفته أخته بشامة بنانه، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة، ورمية بسهم[(٣)].

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص٦٥-٦٦.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص٦٧.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري جـ٨ ص٣٥٨، والكامل في التاريخ جـ٢ ص١٥٦.

٤- سعد بن الربيع :

فقد شارك في غزوة أحد وكان رسول الله ﷺ يحبه، فلما انتهت الغزوة قال رسول الله ﷺ : "من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟".

فقال أبي بن كعب ﵁: أنا أنظر إليك يا رسول الله.

فقال له: "إن رأيت سعد بن الربيع فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ : كيف يجدك؟".

فنظر أبي بن كعب فوجده جريحا به رمق، فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات.

فقال: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة وقد أنفذت إلى مقاتلي، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى الله نبيا عن أمته، وأبلغ قومك مني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم شيء من الأذى وفيكم عين تطرف، ثم مات.

فقال رسول الله ﷺ : "نصح لله ولرسوله حيا وميتا"[1].

٥- حمنة بنت جحش ﵂.

زوجة مصعب بن عمير وقد استشهد زوجها وأخوها وخالها في غزوة أحد، فأقبلت على رسول الله ﷺ فقال لها: "يا حمنة: احتسبي".

قالت: من يا رسول الله؟ قال: "خالك حمزة".

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئا له بالشهادة.

ثم قال لها: "احتسبي"، قالت: من يا رسول الله؟ قال: "أخوك".

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئا له بالشهادة.

ثم قال لها: "احتسبي"، قالت: من يا رسول الله؟ قال: "مصعب بن عمير".

قالت: واحزناه.

فقال رسول الله ﷺ : "إن للزوج من المرأة مكانا ما هو لأحد".

---

(١) صفة الصفوة جـ١ ص٤٨٠، السيرة الحلبية جـ٢ ص٥٣٣.

ثم قال لها: "لم قلت هذا؟".

فقالت: يا رسول الله، ذكرت يتم بنيه فراعني.

فدعا رسول الله ﷺ لولده أن يحسن عليهم الخلف، فتزوجت طلحة فولدت لـه محمد بن طلحة، فكان أوصل الناس لولدها[1].

٦-مصعب بن عمير :

لقد ترك المال والجاه والسلطان ثم أسلم وجهه لله رب العالمين، فلما فعل ذلك ظلت تعذبه أمه عذابا شديدا حتى يترك دينه، ولكنه لم يتأثر بل ظل متمسكا بإسلامه، فخرج يوما على بعض المسلمين وهم جلوس حول رسول الله ﷺ .

فما إن أبصروا به حتى حنوا رؤوسهم وغضوا أبصارهم وذرفت بعض عيونهم دفعا شجيا، ذلك أنهم رأوه يرتدي جلبابا مرقعا باليا وعاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه حين كانت ثيابه كزهور الحديقة نضرة وعطرا، وتملى رسول الله ﷺ مشهده وقال ﷺ :

"لقد رأيت مصعبا هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه ثم ترك ذلك كله حبا لله ورسوله"[2].

وكان صابرا على الأذى ابتغاء وجه الله تعالى

قال ابن إسحاق: إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد ابن زرارة، فدخل به حائطا من حوائط بني ظفر على بئر يقال له: بئر مرة فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير يؤمئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه.

فلما سمعا به قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا؛ فإنه لولا سعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص٩٨.

(٢) طبقات ابن سعد جـ١ ص٢٢٠، رجال حول الرسول ص٤٥-٤٦.

قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما

فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه وقد جاءك فأصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

قال: فوقف عليهما متشتما.

فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال: أنصفت.

قال: ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن.

فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله.

ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي، فقال: فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين(١).

٧- عبد الله بن حذافة السهمي :

عن أبي رافع قال: "وجه عمر جيشا إلى الروم فأسروا عبد الله بن حذافة فذهبوا به إلى ملكهم فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد، فقال له: هل لك أن تتنصر وأعطيك نصف ملكي؟

قال: لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ملك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين.

قال: إذا أقتلك، قال: أنت وذاك.

فأمر به فصلب، وقال للرماة: أرموه قريبا من بدنه، وهو يعرض عليه ويأبى، فأنزله ودعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ ص١٤٩-١٥١.

فأمر بأحدهما فألقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبي ثم بكى.

فقيل للملك: إنه بكى، فظن أنه قد جزع فقال: ردوه.

ما أبكاك؟

قال: قلت: هي نفس واحدة تلقي الساعة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تعذب في النار في سبيل الله.

فقال له الطاغية: هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك.

فقال له عبد الله: وعن جميع الأسارى.

قال: نعم.

فقبل رأسه. وقدم بالأسارى على عمر فأخبره، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة وأنا أبدأ، فقبل رأسه"[1].

٨- أبو بكر الصديق :

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا فألح أبو بكر ﵁ على رسول الله ﷺ على الظهور –أي بالإسلام–.

فقال: "يا أبا بكر، إنا قليل" فلم يزل أبو بكر حتى ظهر رسول الله صل الله عليه وسلم وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته.

وقام أبو بكر في الناس خطيبا ورسول الله ﷺ جالس، فكان أو خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ .

وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا، ووطئ أبو بكر وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزل على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه"[2].

٩- وأخيرا نذكر أول هجرة في الإسلام كانت بسبب ما يصيب أصحابه ﷺ من البلاء وأنه لا يقدر على أن يحميهم ويمنعهم مما هم فيه ثم قال لهم:"لو خرجتم إلى أرض

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/٦٣٠).

(٢) حياة الصحابة جـ١ ص٢٧٣-٢٧٤.

الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه".

فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكان في مقدمة المهاجرين: عثمان بن عفان وزوجته، ورقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة وزوجته، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف.... حتى اجتمع في أرض الحبشة من أصحابه ﷺ بضعة وثمانون رجلا.

فلما رأت قريش ذلك، أرسلت إلى النجاشي عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص (ولم يكن قد أسلم بعد) بهدايا مختلفة كثيرة إليه وإلى حاشيته وبطارقته، رجاء أن يرفض قبول هؤلاء المسلمين في جواره ويسلمهم مرة أخرى إلى أعدائهم.

فلما كلما النجاشي في ذلك وكانا قد كلما من قبله بطارقته وقدما إليهم ما جاءا به من الهدايا. رفض النجاشي أن يسلم أحدا من المسلمين إليهما حتى يكلمهم في شأن دينهم الجديد هذا، فجئ بهم إليه، ورسولا قريش عنده، فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من الملل؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك، كنا قوما نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام، ونهانا عن الفواحش، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان... فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، خرجنا إلى بلادك واخترنا لك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك.

فسأله النجاشي أن يتلو عليه شيئا مما جاءهم به الرسول ﷺ من عند الله.

فقرأ عليه جعفر صدرا من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ثم قال لهم: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم التفت إلى رسولا قريش قائلا: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون[1].

والعبر والعظات التي يأخذها الدعاة إلى الله تعالى من هذا الحدث هي كما ذكرها الدكتور البوطي:

"أن أول صفة للإنسان في الدنيا أنه مكلف؛ أي أنه مطالب من قبل الله عز وجل بحمل ما فيه كلفة ومشقة، وأمر الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى، إذ لا معنى للعبودية لله تعالى إن لم يكن ثمة تكليف، وعبودية الإنسان لله عز وجل ضرورة من ضرورات ألوهيته سبحانه وتعالى، فلا معنى للإيمان بها إن لم ندرك عبوديتنا له.

فقد استلزمت العبودية -إذا- التكليف، واستلزم التكليف تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء.

ومن أجل هذا كان واجب عباد الله في هذه الدنيا تحقيق أمرين اثنين:

أ- التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي الصحيح.

ب- سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المال من أجل تحقيق ذلك؛ أي أن الله عز وجل كلفنا بالإيمان بالغاية، وكلفنا إلى جانب ذلك بسلوك الوسيلة الشاقة الطويلة إلى هذه الغاية، مهما بلغت المسألة في خطورتها وصعوبتها.

ولو شاء الله لجعل السبيل إلى إقامة المجتمع الإسلامي بعد الإيمان به سهلا معبدا، ولكن السير في هذه السبيل لا يدل حينئذ على شيء من عبودية السالك لله عز وجل، وعلى أنه قد باع حياته وماله له عز وجل يوم أن أعلن الإيمان به، وعلى أن جميع أهوائه تابعة ومنقادة لما جاء به الرسول ﷺ، ولأمكن حينئذ أن يلتقي على هذه الجادة المؤمن والمنافق والصادق والكاذب، فلا يتمحص الواحد منهم من الآخر[2].

---

(١) فقه السيرة للبوطي ص١٢٠-١٢١.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص١٠٧-١٠٩، تبصرف.

وإذا فإنما يلاقيه الدعاة إلى الله تعالى والمجاهدون في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي سنة إلهية في الكون منذ فجر التاريخ تقتضيها حكم ثلاث:

أ- صفة العبودية الملازمة للإنسان لله عز وجل، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

ب- صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية، فما من رجل أو امرأة يبلغ أحدهما، عاقلاً، سن الرشد، إلا وهو مكلف من قبل الله عز وجل بتحقيق شرعة الإسلام في نفسه، وتحقيق النظام الإسلامي في مجتمعه، على أن يتحمل في سبيل الله كثيرا من الشدة والأذى، حتى يتحقق معنى التكليف.

ج- إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو ترك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط لاستوى الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب.

وصدق الله إذ يقول:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [2].

وقال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[3].

وإذا كانت هذه هي سنة الله في عباده، فلن تجد لسنة الله تبديلاً حتى مع أنبيائه وأصفيائه، من أجل ذلك أوذي رسول الله ﷺ وأوذي من قبله جميع الأنبياء والرسل.

ومن أجل ذلك أوذي أصحاب رسول الله □ حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل.

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦).

(٢) سورة العنكبوت آية (١-٣).

(٣) سورة آل عمران آية (١٤٢).

فإذا أدركت طبيعة العذاب الذي يلقاه المسلم في طريقه إلى إقامة المجتمع الإسلامي، علمت أنه ليس في حقيقته عقبات أو سدودًا تصد السالك أو المجاهد عن بلوغ الغاية، كما يتوهم بعض الناس.

بل هو سلوك في الطريق الطبيعي الذي خطه الله تعالى بين المسلم والغاية التي أمره بالمسير إليها.

أي أن المسلمين يتقربون إلى الغاية التي كلفهم الله بالوصول إليها بمقدار ما يجدونه في طريقهم إلى ذلك من العذاب، وبمقدار ما يتساقط منهم من الشهداء»(١).

المطلب الثاني: الابتلاءات في العصر الحديث

هناك ابتلاءات داخلية وخارجية أصابت الصحوة الإسلامية:

١- الابتلاءات الداخلية:

لقد ابتليت الصحوة الإسلامية في العصر الحديث بفئة من الشباب أساءوا إلى الإسلام وذلك بسبب:

أ- قلة فهمهم له وتعصبهم لأرائهم وعدم اعترافهم بالآراء الأخرى.

والعجيب أن من هؤلاء من يجيز لنفسه أن يجتهد في أعوص المسائل وأغمض القضايا، ويفتي فيها بما يلوح له من رأي وافق فيه أو خالف، ولكنه لا يجيز لعلماء العصر المختصين منفردين أو مجتمعين، أن يجتهدوا في رأي يخالف ما ذهب إليه.

ومنهم من يخرج بآراء وتفسيرات لدين الله، هي غاية في العجب، لا يبالي أن يشذ فيها عن كافة السابقين واللاحقين، والمحدثين والمعاصرين، لأن رأسه برأس أبي بكر، وعمر، وعلي وابن عباس رضي الله عنهم فهو رجل وهم رجال! وليته يعدي هذه الرجولة والفحولة إلى عيره من معاصرية، من لا يرى رأيه، ولا يتبع نهجه من أهل العلم.

---

(١) فقه السيوطي للبوطي ص١٠٧-١٠٩.

ب- أيضا التزامهم التشديد دائما مع قيام موجبات التيسير، وإلزام الآخرين به، حيث لم يلزمهم الله به، إذ لا مانع أن يأخذ المرء لنفسه بالأشد في بعض المسائل، وبالأثقل في بعض الأحوال تورعا واحتياطا، ولكن لا ينبغي أن يكون هذا ديدنه دائما وفي كل حال، بحيث يحتاج إلى التيسير فيأباه، وتأتيه الرخصة فيرفضها.

ج- الغلظة في التعامل والخشونة في الأسلوب، والفظاظة في الدعوة، خلافا لهداية الله تعالى، وهدي رسول الله ﷺ.

فالله تعالى يأمرنا أن ندعو إلى الله بالحكمة لا بالحماقة، وبالموعظة الحسنة لا بالعبارة الخشنة، وأن نجادل بالتي هي أحسن، لذلك خاطب رسوله مبينا علاقته بأصحابه.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1].

فاللين والرفق هو ا لأسلوب الذي ينبغي لأصحاب الدعوات أن يتبعوه في دعوتهم للمعاندين، ومخاطبتهم للمخالفين، وحسبنا وصية الله تعالى للرسولين الكريمين موسى وهارون:

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[2].

ج- سوء الظن بالآخرين والنظر إليهم من خلال منظار أسود يخفي حسناتهم على حين يضخم سيئاتهم؛ فهم يسارعون إلى سوء الظن والاتهام لأدنى سبب، فلا يلتمسون المعاذير للآخرين؛ بل يفتشون عن العيوب، ويتقممون الأخطاء ليضربوا بها الطبل، ويجعلوا من الخطأ خطيئة، ومن الخطيئة كفرًا.

وإذا كان هناك قول أو فعل يحتمل وجهين: وجه خير وهداية، ووجه شر وغواية – رجحوا احتمال الخير، خلافًا لما أثر عن علماء الأمة من أن الأصل حمل حال المسلم على الصلاح، والعمل على تصحيح أقواله وتصرفاته بقدر الإمكان، وقد

---

(١) سورة آل عمران آية (١٥٩).

(٢) سورة طه آية٣(٤٣-٤٤).

كان بعض السلف يقول: إني لألتمس لأخي المعاذير من عذر إلى سبعين ثم أقول: لعل له عذرًا آخر لا أعرفه.

ولم يقف الاتهام عند الأحياء، بل انتقل إلى الأموات الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فلم يدعوا شخصية من الشخصيات المرموقة إلا صوبوا إليها سهام الاتهام.

ح-تكفير كل من ليس على طريقتهم؛ فهم يكفرون كل من ارتكب معصية وأصر عليها ولم يتب منها، ويكفرون الحكام لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله، ويكفرون المحكومين، ويكفرون علماء الدين وغيرهم، ويكفرون كل من عرضوا عليه فكرهم فلم يقبله، والعصور الإسلامية بعد القرن الرابع الهجري كلها عصور كفر وجاهلية!!

وهذا الفكر وقعت فيه طائفة الخوارج قديمًا، ووقعت فيه جماعة التكفير والهجرة حديثًا، وكل الشبهات التي استند إليها الغلاة في التكفير مردودة بالمحكمات البينات من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو فكر فرغت منه الأمة منذ قرون فجاء هؤلاء يجددونه وهيهات(١).

أسباب هذا الانحراف:

من الأسباب الأساسية لهذا الانحراف:

١- ضعف البصيرة بحقيقة الدين، وقلة البضاعة في فقهه، والتعمق في معرفة أسراره والوصول إلى فهم مقاصده.

ورحم الإمام الشاطبي فقد نبه على هذه الحقيقة بوضوح في كتابه "الفريد" فقد جعل أول أسباب الابتداع والاختلاف المذموم المؤدي إلى تفرق الأمة شيعًا، وجعل بأسها بينها شديدًا: أن يعتقد الإنسان في نفسه – أو يُعتقد فيه – أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين، وهو لم يبلغ تلك الدرجة، فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأيًا، وخلافه خلافًا، ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرع من الفروع – يعني فروع الدين

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف د/يوسف القرضاوي ص ٣٩- ٥٦ (بتصرف).

-، وتارة يكون في كلي وأصل من أصول الدين- من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العلمية-.

فتراه آخذًا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها، حتى يصير منها ما ظهر له بادي رأيه من غير إحاطة بمعانيها، ولا رسوخ في فهم مقاصدها، وهذا هو المبتدع[1].

٢- التمسك بحرفية النصوص دون تغلغل إلى فهم فحواها ومعرفة مقاصدها، فهم في الحقيقة يعيدون المدرسة الظاهرية من جديد بعد أن فرغت منها الأمة، وهي المدرسة التي ترفض التعليل للأحكام، وتنكر القياس تبعًا لذلك، والصحيح أن الأصل في العبادات هو التعبد بها دون نظر إلى ما فيها من مصالح ومقاصد، بخلاف ما يتعلق بالعادات والمعاملات، فلا بد من النظر إلى المصالح والمقاصد.

٣- الاشتغال بالمعارك الجانبية والأمور الفرعية عن القضايا الكبرى التي تتعلق بكينونة الأمة وهويتها ومصيرها؛ فنرى كثيرًا منهم يقيم الدنيا ويقعدها من أجل حلق اللحية أو الأخذ منها أو تحريك الأصبع في التشهد، أو اقتناء الصور الفوتوغرافية أو نحو ذلك من المسائل التي طال فيها الجدال، هذا في الوقت الذي تزحف العلمانية اللادينية، وتكيد الصليبية كيدها، وترسخ الصهيونية أقدامها، ويذبح المسلمون في أنحاء متفرقة من الأرض، ويضطهد الدعاة الصادقون إلى الإسلام في بقاع شتى.

٤- اتباعهم المتشابهات من النصوص، وترك المحكمات البينات وهذا لا يصدر من راسخ في العلم، إنما هو شأن الذين في قلوبهم زيغ، قال الله تعالى في شأنهم: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ﴾[2]

وهذه السطحية في الفهم، والتسرع في الحكم – هي التي جعلت طائفة الخوارج قديمًا تسقط في ورطة التكفير لمن عداهم من المسلمين، وتقاتل رجل الإسلام

---

(١) كتاب الفريد للإمام الشاطبي جـ٢ ص ١٧٣، نقلاً عن كتاب الصحوة الإسلامية ص ٦١ – ٦٢.

(٢) سورة آل عمران آية (٧).

العظيم علي بن أبي طالب ، وهذا الفهم أيضًا جعل جماعة التكفير حديثًا تقاتل أهل الإسلام وتترك أهل الكفر والضلال.

لذلك يقول عنهم ابن عمر رضي الله عنهما لما سئل عنهم قديمًا قال: "يكفرون المسلمين، ويستحلون دماءهم وأموالهم، وينكحون النساء في عددهن، وتأتيهم المرأة فينكحها الرجل منهم ولها زوج، فلا أعلم أحدًا أحق بالقتال منهم"[1]

٥- ضعف البصيرة بالواقع والحياة وبالتاريخ وبسنن الله في الخلق، فتجد أحدهم يريد ما لا يكون، ويطلب ما لا يوجد، ويتخيل ما لا يقع، ويفهم الوقائع على غير حقيقتها، ويفسرها وفقًا لأوهام رسخت في رأسه لا أساس لها من سنن الله في خلقه، ولا من أحكامه في شرعه، فهو يريد أن يغير المجتمع كله: أفكاره ومشاعره وتقاليد وأخلاقه، وأنظمته: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بوسائل وهمية، وأساليب خيالية في شجاعة وجرأة وفدائية لا تستكثر تضحية وإن قلت، ولا تعبأ بالموت تقع عليه أو يقع عليها، ولا تهتم بالنتائج أيا كانت مادامت نيتها لله وهدفها إعلاء كلمة الله تعالى.

ومن ثم لا يستغرب أن تندفع إلى أعمال وتصرفات يسميها بعض الناس "انتحارية" ويسميها آخرون "جنونية" يسقط ضحيتها عدد منهم دون أن يبالوا بذلك شيئًا وهذا ما فعله الإرهابيون منهم في هذه الأيام:

ولو رجع هؤلاء إلى السيرة النبوية لوجدوا أن رسول الله ﷺ ظل ثلاثة عشر عامًا في مكة يدعو ويربي، والشرك ضارب أطنابه عن يمينه وشماله: الكعبة البيت الحرام تحيط بها الأصنام التي بلغت نحو (٣٦٠) صنمًا، وهو عليه السلام يصلي عند الكعبة ويطوف بها، وتلك الأصنام من حوله لم يفكر أن يقوم هو وأصحابه بهجمة فدائية لتحطيمها والخلاص منها، لأنه لو فعل لعرض نفسه وأصحابه للهلاك لعدم تكافؤ القوى أو تقاربها.

ولهذا تركها ﷺ واشتغل بالدعوة إلى تحرير العقول بالتوحيد وتطهير القلوب بالتقوى، وإعداد الصف المؤمن لمعركة فاصلة مع قوى الكفر المضمر للسوء، وتربية

---

(١) الفريد للشاطبي جـ٢ ص ١٨٢ – ١٨٤.

أصحابه على الصبر الجميل والنفس الطويل حتى يأتي أوان المواجهة مع الوثنية العاتية وهو آت لا ريب[1].

٢- الابتلاءات الخارجية:

وهي إثارة الفتن الطائفية التي قصد منها إعطاء الجيوش الاستعمارية مبررات الاحتلال باسم حماية الأقليات.

فبسبب سوء فهم بعض شباب الصحوة الإسلامية وبسبب تصرفات بعضهم الفردية الجنونية؛ استغل أعداء الإسلام هذه التصرفات لضرب الحركة الإسلامية في جميع بلاد العالم الإسلامي.

يقول لورنس "براون" – وهو أحد زعماء المبشرين – في كتابه "الإسلام والإرساليات": "إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضًا، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير"[2]

فأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم يستغلون النفوس الضعيفة من الذين في قلوبهم مرض من المسلمين لبث الفرقة وإثارة الذعر والرعب والإرهاب بين المسلمين، والذي شاهدناه ونسمع عنه كل يوم من أن جماعة إسلامية قامت بتفجير قنبلة في وسط تجمعات سكنية أو قامت بقتل المسلمين وتفجير بطونهم وهتك أعراض نسائهم سواء كان في مصر أو الجزائر أو غير ذلك من البلاد الإسلامية والعربية، كل ذلك ليس بأيدي الجماعات الإسلامية الحقة، وإنما بأيدي النفوس المريضة المأجورة من المسلمين، فمن المعلوم أن جهاز الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) يكلف هؤلاء المرضى بالعمليات الإرهابية ثم بعد ذلك تعلن الحكومات الإسلامية أن هذه العمليات بأيدي الجماعات الإرهابية المتطرفة حتى تفقد جماهير المسلمين في كل مكان الثقة بالشباب العارف بالله، وأيضًا تشويه الإسلام والمسلمين أمام الأمم الأخرى حتى لا

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف د. يوسف القرضاوي ص ٩٥ – ٩٩ (بتصرف).

(٢) أجنحة المكر الثلاثة د/عبد الرحمن حسن حبنكه ص ٣٠٩.

يدخلوا في الإسلام، وأيضًا إبعاد شباب الإسلام عن الله وتنفيرهم منه وإضعافه في نفوسهم وإشغالهم عنه بمبادئ أخرى.

من الأمثلة على ذلك:

١- تهمة وخديعة للمنتقبات :

انتشرت بين النساء المسلمات خديعة كبيرة عمل على بثها وترويجها بغاة الفتنة والفساد، وقد تضمنت هذه الخديعة اتهام الحجاب بأنه قد صار شعار كثير من الفاسقات اللواتي يتعرضن للفحش، ويجتذبن إليهن الفاسقين من الرجال، أما الحاسرات اللواتي يعرضن مفاتنهن لكل ناظر فلا يتعرض لهن أحد، والغرض من هذه الخديعة تحريض المسلمات العفيفات الشريفات على أن يخرجن سافرات حاسرات، وسارت هذه الخديعة وانطلت على كثير من المؤمنات العفيفات في بعض بلاد المسلمين، فأخذن يخلعن ألبستهن الساترة، ويظهرن في الأسواق العامة حاسرات عن رؤوسهن وأذرعتهن.

ولتمكين هذه الخديعة عمل بغاة الفتنة على اصطناع الشواهد التطبيقية لفكرتها الماكرة التي أشاعوها بين صفوف المسلمات؛ فاتخذوا لذلك وسيلتين:

الوسيلة الأولى: توجيه بعض العواهر الفواجر أن يتسترن بمثل الألبسة التي تتستر بها المؤمنات العفيفات الشريفات، وأن يسرن في الأسواق العامة ويتعرضن للفساق وهن في هذه الألبسة الساترة المزورة.

والغرض من ذلك تأكيد الخديعة بشواهد واقعية ليتقبلها المنخدعون والمنخدعات ويتأثروا بها. وعندئذ لا يبقى لدعاة الستر والحشمة كلمة مسموعة.

الوسيلة الثانية: توجيه فريق من الفساق المأجورين أن يتعرضوا للمتسترات العفيفات في الطرقات العامة، ويؤذوهن في عفافهن بفسق من القول أو الغمز أو اللمز، أو اللمس أو الإشارات، أو تثبيت النظر أو الملاحقة في الطرقات، أو نحو ذلك من رفث متسكع حقير لتصير هذه القبائح المنكرة عادة لازمة للفساق، فتلجأ المرأة المتسترة العفيفة إلى خلع ألبستها الساترة فرارًا من مضايقات الفساق وأذاهم، وبذلك يتحقق لأعداء الإسلام ما يعملون لنشره بين صفوف المسلمين والمسلمات، ثم

يتدرجون بعد ذلك بالمرأة المسلمة حتى يغمسوها في الانحراف والرذيلة كما فعلت المرأة الأوربية[1].

٢- في الأيام الماضية ابتعد كثير من الشباب عن الله وعن الله وعن المساجد خوفًا من يلقى القبض عليهم، وخوفًا من أن يقال عنهم إرهابيين؛ فاكتفوا بالصلاة في بيوتهم، أو بترك الصلاة وإتباع الشهوات والجري وراء اللهو واللعب.

وفي ميادين اللهو واللعب تعرض الشباب في هذه الأيام لغزو كبير من قبل أعدائهم؛ إذ أرسلوا إليهم سيولاً متتابعة من اللهو والفحش والخلاعة، ووسائل التسلية، وأدوات اللعب القاتل للوقت، ومجلات الصور الفاجرة والدعوة الجنسية الوقحة، والنكتة القذرة أو المستهزئة بالدين والفضيلة، وكتب القصة التافهة أو الماجنة، وتفاهات الموسيقى النابية والغناء الشاذ اللذين يخاطبان الغرائز ويثيران الشهوات الجانحة.

وأخطر من هذا كله ما يسمى (الستالايت)، وقد ألبسوا في كل ذلك أثواب العلم والفن زورًا وبهتانًا، وعمدوا إلى أن يمتصوا به أفكار المسلمين وعواطفهم وأخلاقهم وكل عاداتهم الكريمة، ليضعوا محلها ما شحنت به هذه الواردات المتدفقة من أرجاس فكرية وخلقية واجتماعية.

والقابضون على نواصي هذه الوسائل في العالم، المفسدون في الأرض، وفي مقدمتهم شياطين اليهود، الذين يقومون بتحويل جميع مجاري الأموال التي تبتزها هذه الوسائل من المغفلين والمخمورين لتصب آخر الأمر في الأحواض الكبيرة التي يمتلكها اليهود.

٣- صد الهجوم على المسيحية واليهودية وتشويه الدين الإسلامي عن طريق تشويه أتباعه بأنهم متخاذلون ضعفاء أذلاء فرقت بينهم الأهواء والشهوات، وقعدت بهم الصغائر، وانصرفوا عن عظائم الأمور وأصبحوا مستعبدين مستذلين ولو كان الإسلام دينًا قويًا لما كان المسلمون هكذا.

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة ص ٤١٣ – ٤١٤.

ففي سنة من السنوات الماضية ذهبت إلى أمريكا في شهر رمضان وفي صلاة عيد الفطر اجتمع المسلمون في صلاة العيد، ما يقرب من ثلاثين ألف مصل فعلقت إحدى الجرائد الصهيونية على هذا المنظر الطيب في صفحة كاملة من جرائدها، وفي الصفحة المقابلة لها أتوا بصورة للمسلمين وهم يقتلون بعضهم بعضًا في مصر والجزائر ويحرقون الكنائس، ومعنى ذلك أن الإعلام الصهيوني في كل مكان يقوم بتشويه صورة الإسلام والمسلمين حتى لا يقتنع به أحد !

والدليل على ذلك أيضًا الأفلام والمسرحيات والتمثيليات التي عرضت أخيرًا في البلاد العربية يقصد بها تشويه الذين يفعلون سنة الرسول ﷺ وإظهارهم للعالم على أنهم إرهابيين أصوليين، بل إذا حدثت جريمة في العالم الآن فإنها لا تنسب إلا لهؤلاء الأصوليين الإرهابيين.

والعجيب أن المتطرفين في جانب التحلل من قيود الدين، لا يلقون من الإنكار والمعارضة ما يلقاه المتطرفون في جانب التمسك بالدين والولاء له، وكان المفروض أن ينكر التطرف بشقيه.

فهل من الإنصاف أن ننحي باللائمة، ونصب جام غضبنا على الشباب الذي يعيش للإسلام وبه، محافظًا على الصلوات، هاجرًا للمنكرات، محصنًا فرجه، غاضًا بصره، حافظًا لسانه، يتحرى الحلال، ويتوقى الحرام، حريصًا على كل ما يعتقد أنه من أدب الإسلام، من لحية يطيلها وثوب يقصره وسواك يراه مطهرة للفم، مرضاة للرب، صائنًا لوقته من اللغو، ولماله من الإضاعة فيما لا يفيد، حتى السيجارة لا يتناولها؟!

إن واجب الحكومة الإسلامية أن تأخذ على يد هؤلاء العابثين ولكنها في نفس الوقت يجب ألا تعمم ذلك على كل من كان في حقل الإسلام، فيجب أن يعاقب فقط المجرمون، أما الذين يعملون بإخلاص فيجب أن تساعدهم الحكومات في العمل أكثر وأكثر.

ومن ثم كان من أكبر الإثم الذي ترتكبه بعض الحكومات في البلاد الإسلامية مصادرة حرية الدعوة إلى الإسلام باعتباره عقيدة ونظام حياة، والوقوف في وجه

الداعين إليه، والعاملين لتحكيم شريعته وإقامة دولته، وتوحيد أمته، وتحرير أوطانه، ونصرة قضاياه وتجميع الناس عليه.

وليس معقولا أن يطلق العنان في أرض الإسلام لدعاة العلمانية والماركسية والليبرالية ويرها من المذاهب والفلسفات والأنظمة، ولأن تنشأ لها أحزاب ومنظمات، وتنطق باسمها صحف ومجلات، ويفرض الحظر على الإسلام وحده، وهو صاحب الدار، وتوضع الكمائم على أفواه دعاته وحدهم، وهم المعبرون عن سواد الشعب، وعن عقائد الأمة وقيمها[1].

٣- ابتلاء الدعاة الصادقين مع الله تعالى:

ومن المؤثرات النفسية التي تقف حجر عشرة في طريق الدعاة الصادقين وتؤخر مسيرتهم نحو العز والنصر المؤثر الابتلائي الاضطهادي الذي يكتنفهم، وينزل بساحتهم، ويمسك بخناقهم، ويرميهم بكل تهمة باطلة، ويصوب إليهم كل منكر من القول وزور.

ومن هذه المؤثرات:

أ- ابتلاء التعذيب والسجن والاعتقال.

ب- ومنها ابتلاء التسريح ومصادرة الأملاك والأموال.

ج- ومنها ابتلاء تلفيق التهمة والتزوير والبهتان.

د- ومنها ابتلاء التهكم والسخرية والاستهزاء.

هـ- ومنها ابتلاء التهجير والنفي والإبعاد عن الأوطان.

و- ومنها ابتلاء التجويع والتفقير والإذلال.

ز- ومنها ابتلاء التهديد بالعرض وقتل النساء والأطفال.

ولا شك أن هذه الابتلاءات وأمثالها تكفي واحدة منها أن ترد الذين ينتظمون في سلك الدعوة لغرض المطامع الشخصية على أعقابهم مرتدين خاسرين، وصدق الله تعالى القائل:

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص١٢٠-١٢١.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾(١).

أما الذين انتظموا في صف الدعوة بقصد الإخلاص والصدق وإعلاء كلمة الله فهؤلاء لا تردهم عن مسيرتهم الدعوية فتنة، ولا تزعزعهم محنة، ولا يصرفهم ابتلاء، بل يثبتون في موقعهم التي هم فيها كثبان الجبل العالي الأشم لا يتأثرون بالأحداث، ولا تزلزلهم حادثات الليالي... بل يكونون من الصنف الذي قال الله عنهم في محكم التنزيل:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢).

ومن القضايا المسلم بها في تاريخ الدعوات أن الحق إذا واجه الباطل لابد أن يكون معه في صراع، وأن صوت الدعوة الداوي المجلجل لا بد أن يثير مكائد الطغاة، وهنا تظهر الحقيقة الابتلائية في أجل معانيها: هل سيثبت الدعاة في مواقعهم نتيجة هذه المواجهة والصراع؟

هل يبدلون ويغيرون إذا عظم عليهم الخطب واشتد البلاء؟

هل ينعطفون في مسيرتهم الدعوية إلى دروب الإخلاد إلى الأرض وفتنة الحياة؟ كل ذلك سوف تظهر حقيقته إذا مروا بمراحل الفتنة وأطوار البلاء.

والقرآن الكريم قرر مبدأ الابتلاء والتمحيص على طريق المحنة بآيات واضحات بينات، قال الله تعالى:

﴿الم . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾(٣).

---

(١) سورة الحج آية (١١).

(٢) سورة الأحزاب آية (٢٣-٢٤).

(٣) سورة العنكبوت آية (١-٣).

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الذين يصابرون ويصبرون على طريق الدعوة والجهاد دون أن يكترثوا بفتنة أو يبالوا باضطهاد ومحنة فإن سبيلهم رضوان الله وجنات عدن عند مليك مقتدر، والقرآن الكريم قرر ذلك أكثر من آية:

قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [2].

وقال تعالى:

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [3].

فما على الدعاة إذن إلا أن يعلموا أن من طبيعة الدعوات الصراع، ومن طبيعة الصراع الابتلاء، ومن طبيعة الابتلاء تمحيص الذين يسيرون على طريق الدعوة: هل يثبتوا أو ينهزمون؟ وفي حال الثبات والصبر والمصابرة فإن الله أعد للصابرين المجاهدين في يوم الخلود ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هل عرف الدعاة ذلك؟ وهل دروا أن طريق الدعوة محفوف بالأشواك والعقبات؟ وهل علموا أن العمل في سبيل الإسلام يتطلب صبرا ومصابرة وكفاحا مريرا؟!

ومعالجة المؤثرات الابتلائية في الدعاة يكون بالأمور الآتية:

---

(١) سورة محمد آية (٣١).

(٢) سورة آل عمران آية (١٤٢).

(٣) سورة آل عمران آية (١٩٥).

أ- أن يعلم الداعية أن الابتلاء على طريق هو من سنن الأنبياء والدعاة والمــصلحين فما على الداعية الحق الصادق إلا أن ينهج نهجهم، ويسير على الدرب مثلهم.

ب- أن يوقن أنه إذا صبر على البلاء، وتحمل الأذى في سبيل اله فله أجر الصادقين، وجزاء الصابرين... إذ أعد الله سبحانه لهؤلاء من النعيم والرضوان والمتعة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر.

جـ- أن يستفرغ جهده في أن يعمق في نفسه عقيدة القضاء والقدر ليوقن أن كل مـا يصيبه في الحياة مسطرة في اللوح المحفوظ، بل هو من القدر الكائن المحتـوم... فلا يسعه -بعد الوقوع- إلا الرضا والتسليم.

أثر البلاء على الدعاة إلى الله وكيفية دفعه

المطلب الأول: أثر البلاء على الدعاة إلى الله تعالى

١- إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيــه أهلكتــه أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منــه تلــك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة.

ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه، كما روي عن صهيب ﷺ قــال: قال رسول الله ﷺ:

"عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"(١).

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزته وعافيته(٢).

٢- إن وقوع البلاء ببعض الدعاة ليس معناه - كما يتصور البعض- أن خطأ معينــا وقع فيه هؤلاء؛ إذ من الممكن أن يكون الابتلاء لرفع درجاتهم وعلو مكانتهم.

ومما يدل على هذا: الحديث الذي ذكرته سابقا؛ وهو أنه ﷺ لمــا ســئل: أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فــإن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٨ ص١٢٥.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جـ٢ ص١١٨-١١٩.

كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه. فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئه"(١).

وفقه الداعية لهذه المسألة يمنعه من التطاول على الدعاة إلى الله إذا تعرضوا للإيذاء، بل ويجعله ذلك يتهم نفسه، ويراجع حساباته لعله يكون قد أخطأ الطريق.

ومن كلمات الداعية المعاصر الشيخ محمد متولي الشعراوي ما معناه: "إذا لم يبتل الداعية لم يأخذ حظه من ميراث النبوة كاملا" وهو يشير بهذا الكلام إلى أن العلماء ورثة الأنبياء.

وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على وقوع البلاء بهم جميعا، فإذا لم يبتل الداعية أخذ حظه من ميراث النبوة في جانب، وفاته ذلك في جانب آخر.

ولا يعني ذلك أن يصطدم الداعية حبا في وقوع البلاء به، أو حتى مجرد تمني وقوعه به، فإن السنة قد علمتنا -حتى لا نغتر بأنفسنا- ألا نتمنى البلاء، بل علينا أن نسأل الله العفو والعافية.

ففي الحديث : "لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا"(٢).

٣- إن الصبر لا يعني – كما يتصور البعض- الخضوع والاستسلام، فحاشا لله تعالى أن يوصي الرسل والمؤمنين بشيء فيه ذلة واستكانة، أو خضوع واستسلام.

إن الصبر على البلاء يعني ألا يضيق المرء ذرعا بما يواجه دعوته من عقبات، بل عليه أن يستقبل الشدائد بالرضا والتسليم، وأن يبقى على مدى الأيام صلبا، فلا تلين له قناة، ولا يفتر له عزم.

وعليه – إلى جانب ذلك- أن يتعامل مع الشدائد بكياسة المؤمن وفطنته؛ فإذا رأى عقبة في طريق دار حولها ومضي إلى ما خلفا، واثبت ذاته ووجوده في مجالات لا حرج عليه من العمل في دائرتها(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ١ ص١٧٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه جـ٣ ص١٣٦٢ كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو.

(٣) أخلاق الداعية إلى الله تعالى د/ طلعت عفيفي ص١٨٠-١٨١.

يقول أستاذنا البهي الخولي في كتابه "تذكرة الدعاة":

"اعلم أن مثل الداعية القوي المؤمن كمثل السيل المنحدر من شواهق الجبال... فيه منه قوة الاندفاع، وفيه منه للناس سر الانتفاع.

ولكن السيل لا يعج إلى العقبات أو الهضاب فيمزقها، بل يدور حولها ويحيط بأطرافها، ويمضي إلى ما خلفها، ويتركها معزولة عما عداها، ثم يعلو ماؤه، ويغزر فيضه، فيرتفع على جوانبها بالتدريج حتى يغطي قممها، ويخضع لسلطانه رؤوسها الشامخة.

فرسالتك –أيها الداعية– قد نزلت من السماء لا من الجل، وأنت سر اندفاعها وانتفاع قلبك بها، وأنت الذي يجب أن تسبح بدعوتك في كل مكان، فإذا صادفتك عقبة من قانون عتيد، أو شخصية طاغية، فلا تعرض لها بغير ما يعرض لها السيل، ادعها بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تقف عندها فذلك خرق وجهل، بل افعل ما يفعل السيل، در حولها، وامض في سبيلك إلى ما وراءها، وادع الناس إلى جانبك حتى تغدو منعزلة عما عداها، ويقنعها الواقع بقوة أمر الله أو يغيبها أمر الله عن الأنظار"[1].

ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: "يجب أن تروضوا أنفسكم على الأعمال الثابتة البعيدة الأثر والنتائج بطريق منظم تجريجي، فكل عمل مهما كان حقيرا في نظركم إذا كان مهما في حد ذاته، ووكل إليكم أمره فعليكم أن تنفقوا فيه حياتكم كلها بدون أن تنتظروا له نتيجة عاجلة مرئية، وبدون أن ترجوا من الناس على جهودكم فيه"[2].

٤- ومن فوائد الابتلاء للداعية ولكل مؤمن أن الإنسان في مرحلة الابتلاء يزداد تعلقا بالعبادات ويكثر من النوافل، وتلاوة القرآن، ويتوجه إلى الله تبارك وتعالى بالرجاء والدعاء. إن القلب يتصل بالله، والروح تتشغل في هذا الجو بالاتصال بحبل الله المتين.

---

(١) تذكرة الدعاة د/ البهي الخولي ص٢٥٣-٢٦٦ (بتصرف).

(٢) تذكرة دعاة الإسلام ، أبو الأعلى المودودي ص٩٠ وما بعدها.

وأيضا فيه زيادة الثقة بنصر الله تعالى؛ لأن الإنسان إلى الظروف الحرجة حين يفقد السبل المادية للنجاة، لا يبقى أمامه إلا الرب تبارك وتعالى، فهو وحده الذي يخفف عنه، ويثبته ويصبره، فيتجه بكليته إلى ربه يسأله الثبات على الطريق.

٥- الابتلاء فيه تكفر للسيئات والحط من الذنوب والخطايا؛ لقول الرسول ﷺ: "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه" [1].

وهو أيضا دليل على محبة المولى تبارك وتعالى للعبد المؤمن لقوله ﷺ: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط"[2].

٦- الابتلاء فيه تعرف على معادن الرجال وخصالهم. فهناك صفات الصبر والشجاعة والزهد والتواضع والثبات والكرم، والشح والجبن والجشع والكبرياء، والابتلاء بصورة المتعددة وفروعه الكثيرة يبرز صفات الرجال في الحركة الإسلامية؛ كالشجاعة والصبر والحنكة والدهاء والحلم، أو غير ذلك من هذه الصفات، وهذا شيء جيد جدا بالنسبة للناس حتى يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

٧- أيضا الابتلاء فيه تنقية للصف المؤمن من أعدائه الباطنيين؛ لأنه قد يدخل في الصف وقت الرخاء أناس يتظاهرون بالإسلام وهم في حقيقتهم منافقون يضمرون الحقد على الإسلام وأهله، فالابتلاء وسيلة لتنقية الصف المؤمن من هؤلاء.

قال الله تعالى:

مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾[3] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) سورة آل عمران آية(١٧٩).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "أي لا بد أن يعقد شيئا من المحنة يظهر فيه وليه، ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين؛ فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به أستار المنافقين؛ فظهرت مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ"(١).

ويظهر هذا التمحيص في قوله تعالى:

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

ومن الأمثلة على هذا التمحيص:

أ- معجزة الإسراء والمعراج كانت تمحيصا وغربلة لضعفاء الإيمان لذلك يقول المولى تبارك وتعالى في شأنها:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٣).

فكانت هذه المعجزة تمحيصا للمؤمنين؛ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون".

قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٤).

ب- أيضا تحويل القبلة كان تمحيصا للمؤمنين؛ لقول الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء آية (٦٠).

(٣) سورة آل عمران آية (١٤١).

(٤) سورة التوبة آية (١٢٤-١٢٥).

(٥) سورة البقرة آية (١٤٣).

٨- ابتلاء الأنبياء والدعاة إلى الله فيه إطلاع الصف المؤمن على أساليب الصف المعادي ومكرهم ووسائلهم لملاحقة المؤمنين، وهذا يكسب المؤمنين قدرة على اكتشاف وسائل لإبطال مكرهم، ووسائل للتغلب عليهم في الصراع.

٩- أيضا لابد من هذه الابتلاءات حتى تتربى النفوس وحتى يؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة؛ لأنها الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها كانت أعز عليهم. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها، وحين يرون ذلك ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها أفواجا أفواجا[١].

١٠- أيضا لا بد من الابتلاء ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى؛ فالشدائد عبارة عن دروس وعبر وكسب للخبرات. والقيم، والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الران على القلوب.

١١- أيضا من آثار البلاء: الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سندا إلا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر: لا شيء إلا الله.. لا قوة إلا قوته.. لا حل إلا حوله.. لا ملجأ إلا إليه.. وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي تقوم عليها تصور صحيح[٢].

المطلب الثاني: استدعاء البلاء ودفعه

إذا كان البلاء والابتلاء مما يصيب الدعاة إلى الله، وبهذا جرت سنة الله، فهل معنى ذلك أن على الداعي المسلم أن يستدعي البلاء ويعمل على وقوعه ولا يجوز له دفعه؟!

في المسألة تفسير وتوضيح؛ لأن هذه المسألة مما يقع فيها الاشتباه والخلط بسبب سوء الفهم لا بسبب سوء النية والقصد. ولتوضيح هذه المسألة أذكر ما يأتي:

---

(١) ظلال القرآن جـ٢ ص١٤٥ (بتصرف).

(٢) المرجع السابق.

١- المطلوب من الداعي المسلم أن يدعو إلى الله على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة التي بينها القرآن الكريم وطبقها الرسول الكريم ﷺ، فإذا أدت هذه الوسائل إلى أذى يصيب الداعي فعليه أن يتقبله بالصبر لا بالجزع، وبالثبات لا بالفرار.

٢- إذا كان للداعي المسلم مندوحة من الأذى أن يستطيع أن يتوقاه ولا يجب عليه أن يقابله، فله أو عليه أن يتوقاه حسب الظروف والأحوال، فقد يباح له الابتعاد عنه وعدم مباشرة ما يستدعيه، وقد يجب عليه الابتعاد وعدم مباشرة ما يستدعيه. لأن الابتلاء صعب على النفس فلا يجوز الحرص عليه ولا الرغبة فيه لأن فيه فتنة مجهولة العاقبة.

وقد يحس المسلم من نفسه القدرة على الثبات، ومن ثم لا يبالي بالابتلاء، بل ربما رغب فيه إما طمعا بثواب الله، وإما لتدخل وسوسة الشيطان ليقال عنه: ما أثبته وما أصبره على البلاء، فإذا نزل البلاء، ضعف عن الاحتمال ووقع في الافتتان ورسب في الامتحان، كما روي عن أحدهم أنه قال: يا رب، امتحني بما شئت فأنا راض بقدرك صابر على ابتلائك فابتلاه الله باحتباس البول، فأخذ يصيح ويولول ويطوف على الأولاد ويقول لهم: ارموا عمكم الكذاب بالحجارة.

٣- من الأدعية المأثورة أن يسأل المسلم ربه العفو والعافية.

والعافية يدخل فيها المعافاة من الابتلاء والمؤذيات، وهذا يدل على أن التخلص والخلاص من أذى أهل الباطل ممدوح ومحمود غير مذموم.

٤- وفي وصيته عليه الصلاة والسلام لأسامة بن زيد وقد جعله أميرا على الجيش لغزو الروم قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بأيام قال له: "ولا تمنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفناهم واكفف بأسهم".

وقال ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ وهذا يشعر بأن عدم احتياج المؤمنين للقتال لكفاية الله تعالى يعتبر من نعمة الله على المؤمنين، والقتال فيه أذى ونصب وألم، فلو كان تعريض المسلم نفسه للابتلاء والأذى مطلوبا لذاته لما كان عدم الاحتياج إليه مما يمن الله به على المؤمنين.

٥- إيذاء أهل الباطل للمؤمنين غير مطلوب قطعا، بل هو من سيئات أهل الباطل، لأنه إيذاء لأهل الحق، فكيف يسوغ المسلم نفسه للمبطل يؤذيه ويهينه ويذله؟!، ألا يكون في هذا التسليم إعانة على وقوع ما يسخط الله تعالى، وإلقاء للنفس في التهلكة والمهانة والذلة وكل هذا لا يجوز!.

٦- أذن الله للمكره أن يقول كلمة الكفر تخليصا لنفسه من الأذى والتلف، وهذا يدل على إباحة دفع الأذى، وأن للمسلم ألا يساعد على وقوعه عليه.

٧- عند انسحاب خالد بن الوليد بمن معه من جند المسلمين في معركة مؤتة ودخولهم المدينة المنورة، جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله، فيقول رسول الله ﷺ: "ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى"[1].

ووجه الدلالة في هذا الخبر أن خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين انسحبوا من ملاقاة العدو تخلصا من الأذى والضرر، فعابهم المسلمون في المدينة ووصفوهم بالفرار، ولكن سيد العارفين نبينا محمد ﷺ نظر إلى غير ما ينظرون، ورأى في انسحابهم الناجح نوعا من النصر لتخلصهم من القتل ومن أذى المشركين واحتمال أسرهم، وأن انسحابهم كتحول الجند في ساحة المعركة من جهة لأخرى، فدل ذلك على أن دفع البلاء أمر مطلوب إذا أمكن المسلم دفعه، وأن تسليم المسلم نفسه للأذى والضرر حيث يمكنه الخلاص ليس بالأمر الممدوح، بل ولا المشروع[2].

٨- هاجر المسلمون من مكة إلى الحبشة فرارا بدينهم وتخلصا من أذى قريش؛ فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى وعدم الاستسلام له بحجة تحمل الأذى في سبيل الله، لأن نفس المسلم ليست ملكه وإنما ي ملك الله، فلا يجوز إتلافها بلا فائدة تعود إلى الإسلام، وليس من الفائدة أن يقول الناس: ما أثبت هذا وأجرأه على تحمل الأذى في سبيل الله، بل قد يكون تحمل الأذى بهذا الدافع ولهذا الغرض رياء وطلبا للسمعة والجاه عند الناس، وهذا لا يجوز.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص٣٨٨.

(٢) أصول الدعوة د. عبد الكريم زيدان ص١٨٠ وما بعدها.

٩- إن رسول الله ﷺ لم ير بأسا من عون عمه أبي طالب - وكان على دين قومه- في دفع ما يستطيعه من أذى قريش عنه، ولما ماتت خديجة وعمه في عام واحد سماه "عام الحزن" وقال: "ما نال قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب" لأنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حام له، ولا ذاب عنه غيره[١].

وعندما رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف وانتهى إلى حراء بعث رجلا من خزاعة إلى المطعم بن عدي ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه، فأجاره، ودخل رسول الله ﷺ مكة فأقام بها وجعل يدعو إلى الله[٢].

وجعل الدلالة في هذه الآثار أن رسول الله رضي بحماية عمه أبي طالب له ودفع الأذى عنه، وكذلك دخوله عليه الصلاة والسلام بجوار المطعم، فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى عن الداعي ولو عن طريق حماية المشرك، وعدم استحباب تسليم المسلم نفسه لأهل الباطل، وكذلك فعل أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الحبشة؛ فعندما رجعوا إلى مكة "لم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو متخفيا"[٣].

ويجب أن يعلم هنا أن الداعي المسلم في رغبته وسعيه لدفع الأذى عن نفسه إنما يقصد التمكين وإيجاد الجو المناسب لدعوته إلى الله، يوضح ذلك ما جاء في السيرة أن رسول الله ﷺ كان يخرج إلى القبائل أيام الموسم، ويدعوها إلى الإسلام ويقول: "من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي"[٤].

خلاصة القول في استدعاء البلاء ودفعه:

١- إن الأذى أو الضرر الذي يلحق الداعي المسلم هو بمنزلة الأمراض والمصائب التي تنزل على الإنسان، فكما أنه لا يحبها ولا يرغب فيها، ولا يريد إيقاعها على نفسه، ولا يقدح ذلك في إيمانه، فكذلك لا يقدح في إيمانه عدم محبته ولا رغبته في وقوع أذى أهل الباطل عليه وعدم استدعاء الضرر على نفسه.

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي ص١٨.
(٢) المرجع السابق ص٢٨.
(٣) المرجع السابق ص٣١.
(٤) سيرة ابن هشام جـ١ ص٣٨٨.

٢- إن احتمال وقوع الأذى والضرر به لا يقعد به عن دعوته إلى الله، ولكن الداعي لا يستدعي الأذى لنفسه، بل يعمل على عدم وقوعه، وإذا وقع عمل على دفعه بكل وسيلة مشروعة في ضوء ما جاء في القرآن والسنة.

٣- إذا وقع الضرر والأذى على الداعي المسلم بالرغم من التزامه بالسير المشروع في الدعوة إلى الله فعليه أن يستعين بالله ويصبر الصبر الجميل وليعلم أن الأمور كلها بيد الله تعالى، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

مراجع البحث :

١- القرآن الكريم.

٢- الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين، الأستاذ عبد الله ميرغني محمد صالح – دار الاعتصام.

٣- الابتلاء والمحن في الدعوات، د. محمد عبد القادر أبو الفوارس.

٤- أجنحة المكر الثلاثة – سلسلة أعداء الإسلام رقم (٣)، عبد الرحمن حبنكة الميداني – دار القلم – دمشق.

٥- أحكام القرآن لابن العربي، طبعة عيسى البابي، وحققه علي محمد البجاوي.

٦- أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والجماعة، إعداد الشيخ كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

٧- أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، د. طلعت عفيفي، مكتبة الإيمان.

٨- أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان – مؤسسة الرسالة – بيروت.

٩- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية، بيروت، لبنان.

١٠- إمتاع الأسماع، تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، طبع على نفقة الشئون الدينية بدولة قطر.

١١- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة.

١٢- البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف.

١٣- تذكرة الدعاة، د. البهي الخولي، دار القلم – دمشق.

١٤- تذكرة دعاة الإسلام، أبو الأعلى المودودي.
١٥- تفسير ابن كثير، طبعة دار الأندلس - بيروت.
١٦- تفسير أبي السعود لأبي السعود، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة.
١٧- تفسير البحر المحيط لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان، مطابع النصر الحديثة بالرياض.
١٨- تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، طبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة.
١٩- التفسير الكبير للفخر الرازي، دار الكتب العلمية - طهران.
٢٠- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٢١- تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي، بيروت، لبنان.
٢٢- تفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
٢٣- تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة.
٢٤- تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم للإمام الألوسي، طبعة دار إحياء التراث العربي.
٢٥- تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مكتبة السنة القاهرة.
٢٦- حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق.
٢٧- خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامي.
٢٨- رجال حول الرسول، خالد محمد خالد - بيروت - لبنان - دار القلم.
٢٩- سنن أبي داود، مطبعة مصطفى الحلبي.

٣٠- السنن الإلهية في الأمم والجماعات، د٠ عبد الكريم زيدان - مؤسسة الرسالة بيروت.
٣١- سنن الترمذي، مطبعة مصطفى الحلبي.
٣٢- سنن النسائي، مطبعة مصطفى الحلبي.
٣٣- السيرة الحلبية، طبعة مصطفى الحلبي.
٣٤- سيرة بن هشام، طبعة مكتبة التوفيقية.
٣٥- شخصية المسلم كما يصنعها الإسلام، د٠ عبد المنعم النمر، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع.
٣٦- شيخ الإسلام ابن تيمية - جهاده - دعوته - عقيدته، الشيخ أحمد القطان.
٣٧- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د٠ يوسف القرضاوي ، الكتاب الصادر عن رئاسة المحاكم الشرعية - قطر.
٣٨- صحيح الإمام مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية.
٣٩- صحيح البخاري، مطبعة عيسى الحلبي.
٤٠- صحيح مسلم، مطبعة عيسى الحلبي.
٤١- صورة من ابتلاء العلماء، للأستاذ وحيد عبد السلام بالي، دار الإيمان للطبع والنشر.
٤٢- ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب - دار الشروق.
٤٣- عالم وطاغية، د٠ يوسف القرضاوي - مكتبة وهبة - القاهرة.
٤٤- عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري، مطبعة مصطفى الحلبي.
٤٥- فتح القدير للإمام الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
٤٦- الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة -بيروت لبنان.
٤٧- فقه السيرة للبوطي - مطبعة الفكر.
٤٨- في موكب الصبر وصحبة الصابرين، د٠ محيي إسماعيل -دار التوزيع والنشر الإسلامية.
٤٩- قصص القرآن للأستاذ محمد أحمد جاد المولى، بيروت - لبنان.

٥٠- الكامل في التاريخ لابن الأثير، الناشر دار صادر – بيروت.
٥١- لسان العرب لابن منظور، دار المعارف – القاهرة.
٥٢- مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم – بيروت.
٥٣- المعجم الوسيط، صادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطبعة مصر سنة ١٩٦١.
٥٤- المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، طبعة مصطفى البابي الحلبي، وحققه محمد سيد الكيلاني.
٥٥- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد بن سرور بن نايف.
٥٦- النهاية لابن الأثير، طبعة المكتبة الإسلامية.
٥٧- الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم، مكتبة الدعوة الإسلامية.